المؤثرات الاستشراقية في مشروع طه حسين النقدي

كتاب "في الأدب الجاهلي" أنموذجا

د. كمـــــال طاهـــــير

جامعة – عباس لغرور– خنشلة

الكلمات المفتاحية: طه حسين– الشعر الجاهلي– المستشرقون– النظرية النقدية المعاصرة.

Résume

Cette étude vise à étudier la relation entre le projet critique de Taha Hussein concernant sa lecture du texte arabe ancien notamment le texte poétique dans son œuvre (De la poésie pré-islamique), et les études des orientalistes. De ce point, se détermine la problématique de cet article qui tend à chercher les références orientalistes qui ont porté un apport considérable dans la formation d'une conception critique du patrimoine poétique arabe, et la manière dont il s'est manifesté dans l'œuvre de Taha Hussein, l'un des pionniers de la critique arabe moderne qui a déployé de grands efforts pour fonder une théorie critique moderne et contemporaine du texte arabe ancien.

Mots clés : Taha Hussein-la poésie pré-islamique- l'orientalistes-la théorie critique moderne

الملخص:

تروم هذه الورقةإلى البحث في العلاقة بين فكر طه حسين النقدي والدراسات الاستشراقية المتزامنة وبداية التأسيس لمشروعه في قراءة النص التراثي بعامة، والشعري على وجه الخصوص، في مؤلفه " في الشعر الجاهلي"، من هذا المنطلق تتحدد إشكالية الدراسة، والتي تقوم على البحث في المؤثرات والمرجعيات الاستشراقية التي ساهمت في تشكيل الوعي النقدي بالتراث الشعري العربي، و كيف تجسد هذا التأثير عند واحد من رواد النقد العربي الحديث، ونعني به طه حسين في مؤلفه (في الأدب الجاهلي)؟ وما مدى إسهام جهود طه حسين في بناء النظرية النقدية العربية الحديثة والمعاصرة، المتشكلة حول النص التراثي.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

توطئة:

جعل المستشرقون من النص التراثي أرضا خصبة لزرع بذور نظريتهم النقدية القائمة على قراءة التراث وإعادة ترميميه، جمعا، وتحقيقا، وتفسيرا، وتأويلا، لأجل التأصيل والتأسيس معا لنظرية نقدية حول الموروث الأدبي العربي، مستندين في ذلك إلى ما توافر لديهم من مناهج نقدية، وأطر علمية وأكاديمية، ربما لم تتح لمن سبقهم في الاشتغال على النص التراثي، مستفيدين – في ذلك– من تطور أساليب البحث العلمي، فجاءت دراساتهم مستجيبة لمطلب الجدة والابتكار، المنسجم مع التطور العلمي الهائل في الحقل الأدبي والنقدي.

أحدثت هذه الجهود نقلة نوعية في العلاقة بين الدرس النقدي والنص التراثي، فألقت هذه الجهود بظلالها على من ينتسب لهذا التراث من الدارسين والنقاد العرب، هنا حدث التماس بين الفكر الاستشراقي والمتخيل النقدي العربي، وبالضبط في لحظة مفصلية في مسار النقد العربي الحديث، يمكن أن نسمها بزمن البدايات في تشكل الوعي النقدي العربي الحديث الذي مثلهم مجموعة من النقاد البارزين، نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: مصطفى صادق الرافعي، وميخائيل نعيمة، وطه حسين، والعقاد وغيرهم .

تروم هذه الورقة إلى البحث في العلاقة بين فكر طه حسين النقدي والدراسات الاستشراقية المتزامنة وبداية التأسيس لمشروعه في قراءة النص التراثي بعامة، والشعري على وجه الخصوص، في مؤلفه "في الشعر الجاهلي" الصادر سنة 1926 والمعدل فيما بعد، بالحذف والزيادة والصادر سنة 1927 تحت عنوان "في الأدب الجاهلي"، ذلك أنّ طه حسين واجه موجة انتقاد غير مسبوقة، جاءت على قدر جرأة أفكاره القائمة حول النص التراثي،كيف لا، وهو نفسه توقع ما سيتركه مؤلفه من أثر في جمهور المتلقين من الأدباء والنقاد، بل عموم المثقفين، وهذا ما أورده في عبارته الشهيرة التي استهل بها مؤلفه، قائلا:"وهذا نحو من البحث عن تاريخ الجاهليين ولغتهم وأدبهم جديد، لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه" (1)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

صدقت تنبؤات عميد الأدب العربي، مع صدور الكتاب سنة 1926، ومعه استلّت سيوف النقد، ومعها اشتعلت جذوة نار الصراع بين التيار المحافظ ممثلا في الأزهر ومن شايعه، وبين التيار المنفتح على الدراسات الاستشراقية حول التراث العربي؛ همّ الفريق الأول بالهجوم على طه حسينمتّهما إيّاه بالانغماس في المشروع الاستشراقي الذي يخفي نوايا السيطرة على الشرق وتوجيهه فكريا، هذا المشروع الذي استهل حملته بالتشكيك في ثوابت الأمة وفي إرثها الحضاري، بما يخدم مصالح الغرب في الاستيلاء والهيمنة، وفي الجهة المقابلة نجد المدافعين على طه حسين رغم معرفتهم التامة بما سببته استنتاجاته من نقاش فكري حادّ وصل إلى حدّ التشكيك في نوايا الرجل، وحجتهم في ذلك أن طه حسين، ورغم كل ما يمكن أن يوجَّه إليه من نقد، فله شرف السبق في تحريك العقول وهزّ الجماهير من القراء بحمله كتابه من أفكار.

ولعل أبرز من أثنى ثناءً شديدًا على ما صنعه طه حسين، ودوره الريادي في حقل الأدب والدراسات النقدية، الدكتور محمد زكى العشماوي الذي يقول في حوار معه في جريدة "الجمهورية والعالم":"منهجه في دراسة الأدب ونقده... يعتبر حدّا فاصلا بين عهدين، فما قبل طه حسين كانت دراسة الأدب ونقد الأدب مختلفة اختلافا كليا لأنها كانت تهتمّ بالشروح اللغوية للكلمات، ولم تكن تتعمق في تحليل النص وفهمه ودراسته وفق منهج يعتمد على الذوق والذوق المعلَّل، وإنما مجرد أحكام جارفة أو كاسحة لا تنهض على مقدمات أو دلائل مقنعة. فلما جاء أرسى دعائم المنهج التحليلي النقدي السليم الذي ينهض على الاحتكام إلى العقل وعلى تذوق الأثر الفني وتحليله وفق منهج يلتزم الموضوعية وينتهي إلى أحكام دقيقة ومقنعة بحيث خرج الحُكْم من حيّز الخصوص إلى حيز العموم... هذا المنهج الذي أرسى دعائمه د. طه حسين هو الذي استفاد منه أساتذة الجامعات من بعده، وهو الذى عدّل الكثير من الأفكار التي كانت شائعة ومستبدة بحقل النقد الأدبي"[2]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

1-السياق الاستشراقي وصدور الكتاب:

1-1- اهتمام المستشرقين بالتراث العربي:

صدر الكتاب في سياق ثقافي نشط، زاده تشعّب الدّراسات الغربية حول الشرق أو ما يعرف بالاستشراق، حركية وجدلا، ذلك أن الدرس الاستشراقي بدأ يكتسب مشروعيته من خلال بعده الأكاديمي؛ فكلمة مستشرق كانت تطلق – تجاوزا- على كل من يتخصّص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق. لعلّه التصوّر الذي بدأ في الهيمنة على الساحة الأدبية والنقدية في تلك الفترة وقبلها. يقول الدكتور شكري النجار:"وإذا كان صحيحا، أن الاستشراق لم يتقدّم، ولم يصبح أحد مجالات المعرفة الإنسانية الهامة، كما ذكرنا، إلا منذ القرن التاسع عشر نتيجة حركة الترجمة التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر؛ حيث نقل الكثير من النصوص من اللغات العربية والسنسكريتية والزندية وغيرها للغات الأوروبية، ثم ما ترتب على الحملة الفرنسية على مصر من زيادة الاهتمام بمصر والشرق، وتوجيه حركة الاستشراق، بالتالي، إلى مجالات كثيرة غير المجال اللغوي، وإرساء فكرة أن العالم الشرقي والإسلامي يمكن أن يكون معملا للفكر الغربي والبحث العلمي"[3]

اتّجه المستشرقون إلى دراسة حياة الإنسان الشرقي مركزين على ثقافته وإرثه الحضاري مستعينين على ذلك بما توافر لديهم من مناهج بحث تتسم بالموضوعية والدقة العلمية، "فقد طبّق المستشرقون في القرن التاسع، خاصة، المنهج التاريخي... على أغلب الدراسات الإسلامية؛ رغم أنّ تقاليد الكنسيّة، في ذلك الحين كانت تحول دون تقدّم النقد، لكن النّقاد كانوا يزدادون عددا داخل الكنيسة وخارجها، وبالأخص منذ عهد الإصلاح الديني في مطلع القرن السادس عشر".[4]

ساهمت الحركية الفكرية حول الشرق في ازدهار الدراسات الاستشراقية حول التراث الأدبي العربي، وبخاصّة في القرن التاسع عشر ومطلع القرن الذي يليه، فشهدت هذه الفترة ذروة الاهتمام بالموروث الأدبي، تحليلا، وتأويلا، ونقدا بعد أن سبقت بمرحلة الجمع الفهرسة، يقول أحد الباحثين معلّقا على دور الاستشراق الألماني وما بلغه في القرن التاسع عشروما بعده في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

دراسة الثقافة العربية، قائلا: "إنّ هذه الاستفادة المدعاة تحمل على الاستفهام حول وضع اللغة العربية. يجب الاعتراف بأن الاستشراق الألماني لم يكتشف العرب كتاريخ إلا في القرن التاسع عشر، وكثافة إلا في القرن العشرين، وحتى ذلك الحين سوف تبقى اللغة العربية تابعة لقراءة لغة أخرى بالألمانية: العبرية، ولقراءة دينية ثم لاهوتية للتوراة"[5]

وأمّا إذا قمنا بعملية إحصائية فإنّنا نقف على أن أهم الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بالتراث العربي والتي تبنت المنهج التاريخي، قد صدرت في هذه الفترة- ق19/ق20-مثال ذلك؛ دراسات يوليوس فلهاوزن(JuliusWellhausen) (دين العرب في الجاهلية، تشريع المدينة في عهد الرسول) ودراسة تيودور نولدكه (TheodorNöldeke)(ترجمة المعلقات الخمس مع شرح ونقد) المطبوعة في فيينا في1899.

كما أنّ أهمّ مشروع فكري استشراقي حول التراث الأدبي ظهر في هذه الفترة مع المستشرق الايطالي كارلو ألفونسو نالينو(Carlo Alfonso Nallino)(1938/1872)،والذي يعد ضليعا في دراسة كل ما يتعلق بالتراث العربي،ي قول عنه أحد الباحثين: "نالينو يعتبر واحدا ممن اكتشفوا منهجيا واستقصوا المجال العربي الإسلامي، مما قبل الإسلام حتى الحقبة الحديثة برؤية شاملة ومتناسقة"[6] يتجلّى ذلك في أعماله التي نشرها المعهد الشرقي في روما، نذكر منها ما يلي: جنوب الجزيرة العربية، الإسلام كديانة، تاريخ العربي قبل الإسلام، علم الفلك علم الهيئة الجغرافية، التشريع الإسلامي، الأدب واللغة والفلسفة، حياة محمد. كما لايفوتنا أن نشير إلى الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب العربي لكلّ من كارل بروكلمان (Carl Brockelmann)و ريجيس بلاشير(Régis Blachère) ورينو نيكولسن(Reynold Alleyne Nicholson) الاهتمامات النقدية بالآداب العربية لفالتر براونه (Walter Broune،) وجورج لفي دلا فيدا.(Giorgio Levi Della Vida)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

1-2- دراسات مارجليوث حول الشعر الجاهلي:

يعد صمويل مارجليوث (Samuel Margoliouth) من المستشرقين الذين ركّزوا اهتمامهم على دراسة الشعر العربي والبحث في أصوله مطبقا منهج الشك الديكارتي على أبحاثه والتي أوصلته للشكّ في صحة الشعر الجاهلي، رغم أن قضية الشك في صحة هذا الشعر قد سبقه إليها ثلة من المستشرقين، والذين أشار إليهم المستشرق الفرنسي بلاشير،"فذكر أنّ أوّل من تناول الموضوع هو المستشرق نولدكه سنة 1864م وبعد ثماني سنين تطرق للموضوع المستشرق ألوارد في مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين. فأعاد ماذكره الأول من الشكوك التي تحوم حول صحة الشعر الجاهلي، وتابع هذين المستشرقين في آرائهما مستشرقون آخرون طوال ثلاثين سنة هم : ويليام موير(William Muir) وريتيهباسيه (René Basset) وبروكلمان ولايل (Charles Lyell")وم. هوار(Marie-Clément Imbault-Huart)الذيكتب مقالة بعنوان (مصدر جديد للقرآن) سنة 1904م " [7]

شكّلت الدراسات التي تحدث عنها بلاشيرمنطلقا جديدا في مسار النقد الاستشراقي في تعامله مع النص التراثي الشعري، بعد أن تجاوز مرحلة الجمع، فها هو يحاول أن يؤسس لفكرة جديدة تتعلق بالشك في صحة الشعر العربي قبل الإسلام، وهي الفكرة التي بلغت شأنا كبيرا من النضج والتبلور عند المستشرق الإنجليزي مارجليوث بعد أن حشد لها ما تيسر له من أدلة وحجج تعضد نظريته حول القضية.

نظرا للأثر الكبير لهذه النظرية على مشروع طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي، حريّ بنا أن نتتبع تفاصيل الفكرة عند صاحبها منذ بدايتها لنبحث عن الآليات المنهجية والأدوات الإجرائية التي استند إليها في حكمه.

اشتغل مارجليوث لفترة طويلة على القضية إلى أن حوصلها في مقاله الصادر في أفريل من سنة 1925،يقول مترجم المقال في تصديره للقضية عند مارجليوث: "ترجع الأفكار التي تكونت في ذهن مارجليوث حول صحة الشعر الجاهلي إلى سنوات بعيدة قبل أن يكتب بحثه هذا أصول الشعر العربي...ولعل بداية هذه الأفكار كانت حين بدأ بتحقيق كتاب إرشاد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

الأريب المعروف بمعجم الأدباء لياقوت (بدأ سنة 1907 وانتهى سنة 1926) حيث قرعتذهنه الأخبار المتناقضة حول حماد الراوية وخلف الأحمر وأخبار الرواة الوضاعين والثقات، وقد كان ميله نحو الروايات المتعارضة حول كذب الرواة وما دعته المنافسة بينهم إلى اتهام بعضهم الآخر. ولم يشأ مارجليوث أن يقف أمام هذه النصوص المتعارضة المتضاربة يحاكمها ويخرج بوجه الحق فيها، بل راح يلتقط منها ما يوهن الشعر الجاهلي، بل يتصيد الأفكار والأقوال والألفاظ التي يمكن توجيهها نحو الشك في الشعر الجاهلي، وبدأت تظهر نتائج طريقته هذه فيما كتب بعد ذلك، واتخذت كتاباته شكل الإشارات والاستطرادات إلى الحديث عن الانتحال في الشعر الجاهلي عندما يكتب موضوعات لا صلة لها بالشعر، مثل مقالته عن (محمد) في دائرة معارف الدين والأخلاق"[8]

ومن خلال نظرة فاحصة على جهود مارجليوث، نلاحظ أنّها امتدت لما يربو ربع قرن من البحث والدراسة والاستقصاء، تجلت في مقالاته ومحاضراته التي كان يلقيها على طلبته، والتي تجسّدت أيضا في أعماله التي تشير إلى القضية، ومنها بحثه المعنون، بـ "الشعر المحمول على السموأل" المنشور في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة 1906، وبحثه الأخر المنشور في نفس المجلة في سنة1911 والمعنون بـ(أصل الشعر العربي)، دون أن نغفل كتابه الصادر سنة1905 المعنون بـ (محمد وظهور الإسلام). هذه الأبحاث مجتمعة تبلورت كعصارة لنظريته في مقاله الموسوم بـ(أصول الشعر العربي) والذي نقف من خلاله على أهمّ عناصر النظرية، والتي تنقسم إلى قسمين متلازمين، وهما إنكار الشعر الجاهلي جملة، ثم إثبات عدم صحة الشعر الجاهلي.

يبدأ مارجليوث بطرح فرضيات ثم ينفيها بعد أن يخضعها للتمحيص والتحليل، قائلا:"سؤالنا الأول يجب أن يكون: لنفترض أن هذا الأدب حقيقي، فكيف حُفِظ؟ لا بدّ أن يكون قد حُفِظ إمّا عن طريق الرواية الشفهية، وإما عن طريق الكتابة. ويبدو أن الرأي الأول هو الرأي المفضل بالنسبة للمؤلفين العرب. ولو أنّهم كما سنرى لا يجمعون على هذا الرأي جميعا"[9]

ينفي مارجليوث هذه الفرضية لعدم توافر أسباب استقامتها، الأسباب التي لخصها في قوله:"ومع ذلك فإن العديد من القصائد التي لا يستهان بطولها قد حفظت شفاها، ولا يمكن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

ذلك إلا أن يكون هناك أشخاص كان عملهم أن يحفظوها في ذاكرتهم ويروووها للآخرين. وليس لدينا سبب للتفكير بأنّ مثل هذه المهنة كانت موجودة أو أنها يمكن أن تزدهر في العقود الأولى للإسلام ...لقد ألغى الإسلام كلّ ما كان قبله... ولأجل ذلك فقد كان هناك سبب قوي لنسيان الشعر الجاهلي، إذا وُجِد حقا شعر جاهلي، ومن الممكن أن يؤثر ذلك السبب بقوة "[10]

فالدّين الجديد في نظره له دور بارز في التخلّي عن حفظ الشعر الذي يثير الفتن والنعرات القبلية والتي جاء الإسلام ليحاربها، يقول مارجليوث في ذلك: "إن المآثر التي يفترض أن تحتفل بذكراها القصص الشعرية عادة، كانت في تمجيد الانتصارات القبلية، وأنّ الإسلام قصد إلى توحيد العرب...ومن الطبيعي أن يعفّى على كل تلك الذكريات والأناشيد الشعرية التي من هذا النوع، لأنها لا يمكن إلا أن تثير الشحناء والعصبيات فحسب. وحقا إن مثل هذه القصائد ما لم يعمد إلى كتابتها فهي معرضة للنسيان"[11]

أمّا فرضية نقل الشعر عن طريق الكتابة فهي ضعيفة في نظره رغم اعترافه بوجودها؛ وحجّته في ذلك أنّ القرآن ذاته نفى أن يكون للعرب كتاب، والكتب نزلت على اليهود والنصارى فقط، يقول:"لقد نزلت الكتب في طائفتين فقط، هما اليهود والنصارى... أما الوثنيون فليس لديهم شيء من ذلك هذه هي القضية، ومن الصعب أن نفترض أن القرآن كان ممكنا أن يجانبها.....فإذا كان الشعر الجاهلي قد كُتِب لكان كتب كثيرة (هي في الحقيقة كتب ملهمة)....إضافة إلى ذلك فإنّ عملية الازدهار الأدبي طبيعية، وقد تكون ثابتة غير متغيرة. تنمو من الشذوذ إلى الانتظام"[12]

ينتقل مارجليوث إلى المرحلة الثانية في منهجه، والتي تقف عند مضامين النصوص الشعرية الجاهلية، فيقول عنها:"وإذا حوّلنا انتباهنا إلى الأدلّة الداخلية، فهناك بعض السمات حول هذه القصائد التي هي على الأقلّ تسبّب الدهشة. إن الشعراء في أغلب الأمم لا مجال للشك مطلقا في أديانهم، والعرب في نقوشهم مثل بقية الأمم صريحون في هذا الموضوع"[13]إلى أن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

يقول: "ولكن يبقى أن آراء الشعراء الجاهليين في الموضوعات الدينية تظهر لنا أنها كانت مشابهة أو حتى متطابقة مع آراء أولئك الذين تعلّموا القرآن"(14)

يشكّك مارجليوث في لغة الشعر الجاهلي التي تتطابق مع لغة القرآن رغم اختلاف لهجات القبائل التي يفترض أن تكون هي لغة الشعر الجاهلي، يقول في ذلك:"والخطّ الثاني من الأدلّة الداخلية هو الجانب اللغوي، فإنّ كلّ تلك القصائد التي وصلتنا جاءت بلهجة القرآن، سواء أكانت هنا أم هناك، فالكلمة أو الصياغة يجب أن تكون قد استخدمت كما تستعملها القبائل التي تعود إليها في مناطقها المعينة"(15)

تعضد فكرة التشابه الحاصل في موضوعات القصائد الجاهلية موقف مارجليوث، ذلك أنّه لا يمكن أن يحدث هذا مالم يستند الشعراء على مصدر واحد، يقول حول هذه الفكرة: "الخطّ الثالث من حيث (مضمون) القصائد. فهم إذا شرعوا بالنظم بدأوا بمقاطع غزلية مطردة. وسبب ذلك لأنّ القرآن يقول : إن الشعراء في كل واد يهيمون، وإذا شرعوا في وصف رحلتهم ومطاياهم، فلأنّ القرآن يقول: والشعراء يتبعهم الغاوون، ويتحقق هذا بالتأكيد لأنهم أنفسهم ضالون، وإذا شرعوا في الإسهاب في ذكر مآثرهم الفذة، وهي في الغالب مآثر ماجنة خليعة، فلأن القرآن يقول : إنهم يقولون مالا يفعلون"(16)

وفي الأخير يتساءل مارجليوث عن البداية الحقيقية لنظم الشعر بعد أن اطمئنّ لنظريته حول الشكّ في الشعر الجاهلي، قائلا:"وإذا كان الشعر، الذي يبدو ظاهريا أنّه جاهلي. مشكوكا فيه من كلا الناحيتين الداخلية والخارجية، فنحن نعود إلى السؤال حول بداية نظم الشعر العربي، هل هو أثر قديم جدا. مع أن الجزء الأغلب بعد الإسلام؟أم أنه نظم جميعه بعد الإسلام، وهو بهذا يكون تطويرا للأساليب الموجودة في القرآن؟"(17).

آثرنا أن نستعرض بعض تفاصيل نظرية مارجليوث حول صحّة الشعر الجاهلي، دون أن نستعرض المآخذ التي أخذت عليها، وذلك راجع لسببين؛ فأمّا السبب الأول فلأن الردّ على نظرية الشك الاستشراقية قد استوفى حقه منذ صدور كتابات مارجليوث، وأما السبب الثاني

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

فلأن بحثنا يرتكز على تأثيرات هذه الآراء في بناء المشروع النقدي لطه حسين في كتابه المعنون بـ "في الأدب الجاهلي"، وهذا سبب كاف ليجعلنا نستعرض جلّ أفكار مارجليوث حول الموضوع ها هنا.

يتحدّث الدكتور ناصر الدين الأسد عن أثر آراء مارجليوث في فكر طه حسين، بل يعتبر هذه الآراء بمثابة العناصر التي انطلق منها طه حسين في مشروعه، قائلا:"ثم استقرّ الموضوع بين يَدَي الدكتور طه حسين فخلق منه شيئًا جديدًا لم يعرفه القدماء، ولم يقتحم السبيلَ إليه العربُ المحدثون من قبله، ثم أنكره بعدُ كثير من المحدثين إنكارًا خصبًا يتمثل في هذه الكتب التي ألفوها في الرّدّ عليه ونَقْض كتابه. وقد استقى الدكتور طه حسين أكثر مادّته، حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات، من العرب القدماء، وسلك بها سبيل مارجليوث في الاستنباط والاستنتاج والتوسع في دلالات الروايات والأخبار وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذه قاعدة عامة، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفني وبيانه الأخاذ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام... فنحن إذن بإزاء نظرية عامة لم نرها فيما عرضنا من آراء العرب القدماء، ونحسب أنّها لم تخطر لهم على بال، ولكنّنا رأيناها واضحة المعالم فيما عرضنا من آراء مارجليوث، ولم يكتف بالإشارة إليها إشارة عابرة، وإنما نصّ عليها نصًّا صريحًا في عبارات متكررة تختلف ألفاظها وتتفق مراميها، وجاء الدكتور طه حسين فلم يقنع كما قنع مرجليوث بأن يدلنا عليها في مقالة أو مقالتين، وإنما فصّل لنا القول في كتابٍ كاملٍ قائمٍ بذاته"[18]

2- المشروع النقدي لطه حسين في الكتاب:

2-1-موقف طه حسين قبل اتصاله بالفكر الاستشراقي:

ارتأينا أن نثبت هذا العنصر في البحث، حتى نقف على التحولات التي أحدثتها الدراسات الاستشراقية في فكر طه حسين، وإسهامها في تحديد معالم المشروع النقدي عنده، وهذا العنصر في الحقيقة قد أذاعه الدكتور إبراهيم عوض حينما تتبع المسار الفكري لطه حسين قبل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

إصدار الكتاب بمسمّاه القديم (في الشعر الجاهلي)، قائلا: "سوف أتتبّع كتابات طه حسين في الفترة الممتدة ما بين دخوله الجامعة المصرية سنة 1908م واتّصاله من ثمّةبالمستشرقين اتصالاً مباشرًا في قاعات الدرس وخارجها إلى تاريخ تأليفه لكتابه: "في الشعر الجاهلي"، الذي نحن بصدده"[19]

لقد تناول طه حسين كتاب جرجي زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" في عدة مقالات بمجلة "الهداية" (أعداد يونيه ويوليه، وأغسطس وسبتمبر، وأكتوبر ونوفمبر 1911م) وتعرَّض لبعض ما قاله زيدان حول الشعر الجاهلي، لكن لم تبدر مِنْ فيه كلمةٌ واحدةٌ يحيط بها طائف من الشك في ذلك الشعر، بل إنّ كلامه ليدلّ على أنّه كان يأخذ صحته قضية مسلَّمة: ففي المقال الأول مثلا لا يخرج ما قاله في ذلك الصدد عن الاعتراض على زيدان لتقسيمه شعراء الجاهلية إلى أمراءَ وفرسانٍ وصعاليكَ وأصحاب معلقات بدلا من تقسيمهم على أساس من أشعارهم، وما تتأثّر به هذه الأشعار من طبيعة الإقليم والدين والأخلاق والعادات ونحو ذلك، أو الاعتراض عليه بأنّ زوجة امرئ القيس لم يكن اسمها "جندب" بل "أم جندب"وفي المقال الثاني نراه يتحدّث عن امرئ القيس وزهير وعمرو بن كلثوم وعنترة وغيرهم من أصحاب المعلقات حديث المطمئن تمام الاطمئنان إلى حقيقتهم التاريخية وتمثيل أشعارهم للبيئة التي ظهروا فيها خير تمثيل[20]

يتّضح من خلال ما أورده إبراهيم عوض أن الدكتور طه حسين لم يكن مقتنعا بفكرة الشك في صحة الشعر الجاهلي، رغم أن الفكرة قد أشار إليها عدد من المستشرقين قبل مارجليوث – كما أشرنا سابقا- بل والأكثر من هذا نجد القضية طرحت في ثنايا النقد العربي القديم عندما عرضها ابن سلام الجمحي، وطه حسين ذاته وقف على ذلك، يقول ابراهيم عوض: " قد عرَّج في تلك الخطبة على ابن سلام وكتابه: "طبقات الشعراء"، وهو أول كتاب يؤصِّل لنظرية الشك في الشعر الجاهلي، ومع هذا لم يتطرق بكلمة واحدة، ولو همسًا، إلى الكلام عن النَّحْل في ذلك الشعر! "[21]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

الأكثر من هذا كلّه نجد طه حسين – في هذه الفترة- متحمّسا للقديم ومدافعا عنه أشدّ دفاع، وهو الذي أشاد به حتى عندما انتقلت عدوى الشك في التراث الشعري إلى بعض روّاد النقد العربي الحديث، ونشير هنا إلى مصطفى صادق الرافعي، الذي انتقده طه حسين بشدة، يقول إبراهيم عوض معلقا على الخصومة بين طه حسين والرافعي: "ومعروف أنّه قد انتقد في عام 1911م كتاب مصطفى صادق الرافعي "تاريخ آداب العرب"، الذي خصَّص فيه مؤلفه صفحات طويلة لقضية النَّحْل في الشعر الجاهلي، ومع ذلك لا تحسّ فيما كتبه عن هذا الكتاب أنّه كان يدور في خَلَده أيّ شكّ في ذلك الشعر. ومعروف كذلك أنّ هذا الكتاب الذي لم يعجب طه حسين آنذاك قد أعجبه بعد ذلك بخمسة عشر عاما حين أثنى عليه ومدحه في كتابه: "في الشعر الجاهلي" وقد قلت، في تفسير هذا التغيّر الحادّ في موقفه ذاك، إنه أراد أن يخدّر الرافعي حتى لا يتعرّض بالنقد لما كتبه عن القرآن والنّبيفي ذلك الكتاب، وإن هذا التّقرّب لم يخدع الرافعي فشنّ عليه حملةً صاعقةً"[22]

لم يغيّر طه حسين موقفه في كلّ الأبحاث التي نشرها قبل صدور الكتاب، وحتّى مع ما صدر من بعض المستشرقين الذين أثاروا القضية مثل رينان، لم تظهر أفكارهم في كتابات طه حسين ،كما يدّعي بعض المدافعين عن الاستقلالية الفكرية لطه حسين عن مارجليوث، ذلك أنّ طه حسين كتب بعد ذلك بسنواتٍ طائفةً من المقالات عن الشعرين العباسيوالأموي. وقد تعرَّض، في عددٍ من هذه المقالات، للكلام عن الشعر الجاهلي وشعرائه، ولكن بطريقة من يؤمن بصحّة هذا الشعر إيمانا تامّا ولا يتخيّل للحظة أنّه يمكن أن يكون موضع شكّ، مما يقطع بأنّ كل ما قاله أ. عبد الرشيد الصادق من أنّ طه حسين لا بد أنه اطّلع على رينان والمستشرقين الذين شكّوا في ذلك الشعر لا يستند إلى أساس. وبالمناسبة لم يَرِدْ لرينان ولا لغيره من المستشرقين الشاكّين في ذلك الشعر أيّ ذكر في هذه المقالات. وإلى القراء الكرام بعضا مما قاله عن الشعر الجاهلي فيها:

1- يقول في مقال منشور بجريدة "السياسة" بتاريخ أول أكتوبر 1924م عن الغزل في صدر الإسلام: "غزل الجاهليين كان ماديّا خالصا في حين كان في غزل الإسلاميين شيء غير المادة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

ما الذي كان يُعْنَى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزّلوا وذَكَروا النّساء؟...كان الغزل عندهم ضَرْبًا من الوصف... وقلّما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصا على تمثيلها، فإن وَجَدْتَ عندهم هذه العناية لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراءً لأنها كانت عاطفة مادية غليظة... كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شيء".

2- وفي "السياسة" أيضا بتاريخ17 أكتوبر 1924م، وتحت عنوان"عَوْدٌ إلى الغزلين- وضّاح اليمن"، نسمعه يقول: "أريد أن أحدّثك عن هذا الشاعر الذي يلقبونه بـ"وضّاح اليمن"، والذي فُتِن به بعض أساتذة الأدب المحْدَثين حتى خُيِّل إليهم أنّه اخترع الشعر التمثيلي وأضافه إلى تراثنا القديم... ونَسُوا أن الحوار ليس هو التمثيل، وإنّما هو أصل من أصول التمثيل، ونَسُوا أيضا أنّ هذا الحوار الذي يجدونه في شعر وضّاح قد سبق إليه الشعراءُ جميعا في جاهليتهم وإسلامهم، فحاور امرؤ القيس عشيقاته وحاور ابن أبي ربيعة أخدانه".

3- وفي نفس الجريدة بتاريخ 10 ديسمبر 1924م نجده يؤكّد أنّ شعراء الجاهلية لم يكونوا يُعْنَوْن بالغزل إلا بوصفه "وسيلة شعرية إلى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة. ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعرا قَصَر حياتَه الشعرية على الغزل. بل قليلٌ جدًّا عددُ القصائد الجاهلية التي لم يتناول فيها أصحابُها إلا الغزلَ وحده"[23]

ممّا لاشكّ فيه أنّ طه حسين، لم يتطرّق لقضية الشّكّ في الشعر الجاهلي في هذه الفترة- وحتى نكون منصفين- ربما يعود ذلك لمجموعة من الأسباب، لعلّ أبرزها؛ عدم توافر الأدوات الإجرائية الكافية للحكم في القضية، والتي توافرت لديه فيما بعد سفره إلى أوربا واتصاله المباشر بالدراسات الاستشراقية، فرغم أنّه لم يكن منذ البداية مقتنعا بطريقة التعامل مع النص التراثي، الطريقة التي لن تضيف له شيئا، والتي يقول عنها طه حسين في الكتاب الأول من مؤلّفه قيد الدراسة:"في مثل هذا الشهر من سنة 1915كنت أملي مقدمة "لذكرى أبي العلاء" عندما أردت إذاعته في الناس. وكنت ألاحظ في هذه المقدمة أنّه قد كان في درس الأدب بمصر مذهبان، أحدهما مذهب القدماء الذي كان يمثله الأستاذ الشيخ سيد المرصفي، حين كان يفسّر لتلاميذه بالأزهر "ديوان الحماسة لأبي تمام" أو "كتاب الأمالي" لأبي علي القالي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين في البصرة والكوفة وبغداد، مع ميل شديد إلى النقد والغريب.... والآخر مذهب الأوربيين الذي استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأستاذ "نلينو" ومن خلفه من المستشرقين.... وكنت ألاحظ أنّ الفرق بين المذهبين عظيم. وكنت ألاحظ أنّ كلا المذهبين لابدّ منه إذا أردنا أن نتقن الآداب العربية إتقانا صحيحا، ونفقه تاريخها فقها مقاربا وننشئ في نفوس الطلاب ملكة النقد والكتابة، ونأخذهم بمناهج البحث المنتج، وكنت ألاحظ أنّه قد كان بين المذهبين مذهب ثالث مشوه رديء كلّه شرّ، والخيرّ كله أن يصرف عنه الأساتذة والطلاب صرفا...فيعمد إلى الكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة فيترجم لهم أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها، ثم يتبع كل ترجمة بشيء من شعر الشاعر أو نثر الكاتب أو بيان الخطيب، ثم يلمّ في كل عصر بطائفة من المعاني يلفق بعضها إلى بعض في غير فقه ولا فهم ولا احتياط ولا دقة"(24)

يكشف هذا النّص توجّه طه حسين الذي يبدو ممتعضا من التيار الحداثي – في تلك الفترة الذي ابتدع منهجا جديدا في دراسة الأدب وتاريخه والذي يبدو بعيدا كلّ البعد عن النقد الأدبي، وعن بعث مزاج أدبي في نفوس المشتغلين فيه، وهذا ما جعله يبدي إعجابه بدراسة الأدب العربي وفق مذهب القدماء ومنهج المستشرقين، يقول مُقِرّا بذلك: "فعنيت بالمذهبين النافعين في وقت واحد، عهدت إلى المرحوم حفني ناصف، ثم إلى المرحوم الشيخ مهدي بدرس الأدب، وعهدت إلى الأستاذ جويدي، ثم الأستاذ نلينو، ثم الأستاذ فييت بدرس تاريخ الأدب"(25)

يتحدّث طه حسين عن مزايا المذهبين فيقول فيهما: "يبثان في نفوس الطلاب حبّ الأدب القديم والميل إلى قراءته واستظهار الجيد من نصوصه المختلفة، وينشئان فيهم الذوق وملكة الإنشاء؛ كان الآخرون يدرسون الأدب بمناهجهم الغربية الحديثة، فيعلمون الطلاب كيف يبحثون ويقارنون ويستنبطون. وكان كلا الأسلوبين في الدرس ينمّي صاحبه، ويقوي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

أثره، ويكوّن للطالب مزاجا أدبيا علميّا مستقيما خليقا أن يغيّر حياة الأدب العربي في شكلها وموضوعها، كما يقول أصحاب القانون"[26]

من خلال النصوص المعروضة لطه حسين يتّضح جليا بأنّ منهج المستشرقين تمكّن من طه حسين منذ فترة، وهو الذي بدأ يسوِّق له، بعد أن تجاوز مرحلة الإعجاب إلى الدفاع عنه، ومن ثمّة الاستعانة به فيما بعد في أبحاثه العلمية. فمن غير المعقول أن نقف على تبنّي أفكار المستشرقين حول التراث عند طه حسين قبل أن نلمس فيه تحمّسه للمنهج في حدّ ذاته، ومن هنا أمكن القول بأنّ كتابات طه حسين قبل إصداره كتابه (في الأدب الجاهلي) ما هي إلا بداية التأسيس لقراءة جديدة للتراث تتجاوز القراءة الكلاسيكية التي أبان عن رفضه لها منذ عهده الأول بالدرس الأدبي والنقدي.

2-2-مشروع طه حسين النقدي في كتاب في الأدب الجاهلي:

2-2-1- مسوغات المشروع عند طه حسين:

بعدما وقفنا في العناصر السابقة عند السياق الثقافي والحراك النقدي الذي ميّز العلاقة بين النص التراثي والدرس النقدي، والذي بدا يأخذ أبعادا لم تكن مألوفة مع آراء المستشرقين التي فرضت إعادة النظر في الموقف من تراثنا الأدبي، سنقف في هذا العنصر عند تفاعل الدكتور طه حسين مع هذا الطرح، وكيف جسّد مشروعه النقدي في الكتاب، هذا المشروع الذي يبدو أثر المنهج الاستشراقي واضحا، ومعلنا عنه، من طرف طه حسين منذ البداية، في قوله متسائلا عن الميزات التي يجب أن يحوزها دارس الأدب: "وكيف تتصور أستاذا للأدب العربي لم يلم ولا ينتظر أن يلم بلغة أجنبية ولا بأدب أجنبي، ولا بمنهج من مناهج البحث عن حياة اللغة وأطوار الأدب؟ ! وكيف تتصوّر أستاذا للأدب العربي لا يلمّ ولا ينتظر أن يلمّ بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق آدابه ولغاته المختلفة؟ وإنّما يلتمس العلم عند هؤلاء الناس. ولا بدّ من التماسه عندهم، حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا؛ ونستردّ ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وآدابنا وتاريخنا" [27]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

رسم طه حسين خارطة طريق للنقد العربي الحديث من خلال هذا النص، فهو ينتقد ضمنيا تعامل الدارسين مع النص الأدبي، هذا التعامل الذي يبقى أحادي النظرة وقاصرا على مساءلة النص الأدبي، مالم يتبنّ الطروحات والنتائج التي وصل إليها المستشرقون، بل يجب أن تكون هذه الاستنتاجات نقطة انطلاق لدارس الأدب وحتى للنقد العربي في تعامله مع النص.

كأنّي بطه حسين يعترف ضمنيا بفضل المستشرقين عليه وعلى نقاد عصره، وهم الذين أناروا له ولهم الدرب، ومهدوا له ولهم الطريق في بناء مشروع نقدي حداثي، لا يقف عند طه حسين فحسب. بل يمتد أفقيا وعموديا ضاربا صفحا عن النهج الكلاسيكي المتآكل بفعل تكرار ذاته، متمسّكا في الآن ذاته بالمنهج الحداثي المنفتح على النقد الجديد الذي يتخذ من المنهج العلمي أداته ليطبقها على النص الأدبي، والذي يسمح بفهمه، يقول:" إنّك لا تستطيع أن تفهم الأثر الفني للكاتب أو الشاعر إذا اعتمدت على ما تعودنا أن نعتمد عليه في علوم اللغة ومن الأنساب والأخبار ومن النقد؛ وإنما قد تحتاج إلى أن تعتمد على أشياء أخرى ليس بينها وبين الأدب صلة ظاهرة. ولنضرب مثلا بشاعر عربي كالمتنبي أو أبي العلاء، فكن أقدر الناس على فهم النحو وعلوم اللغة كلها والأخبار والتاريخ، ...فلن يكفيك ذلك في فهم شعر المتنبي، وأنت محتاج إلى الفلسفة الطبيعية وإلى ما بعد الطبيعة وإلى الفلك وإلى علم النجوم بل إلى الرياضة أحيانا، لتفهم شعر أبي العلاء"[28]

يدرك طه حسين بأنّ السّير في هذا النهج شائك، ووعر لأولئك الذين سلكوا مسلك الحداثة، يقول:"وأمّا أنصار الجديد، فالطريق أمامهم معوجّة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى. وهم لا يكادون يمضون إلا في أناة وريث هما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة. ذلك أنّهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان...هم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء، إنما يلقونه بالتحفظ والشك. ولعلّ أشدّ ما يملكهم الشكّ حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا. هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي، فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه، ويتساءلون: أهناك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

هو؟ وما مقداره؟ وبم يمتاز عن غيره؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى روية وأناة وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد"[29]

تتّسع مع هذا النص الفجوة بين المدرسة الكلاسيكية ومذهب المجددين في دراسة الأدب، من جهة منهج الدراسة ومن جهة النتائج المرجوة من وراء ذلك، فإذا كانت المدرسة الكلاسيكية اطمأنّت على جهودها وحدّدت سلفا النتائج، فإن المجدّدين يأملون في بناء صرح نقدي جديد يؤسس لفكرة لا يقين إلا بعد الاحتكام إلى العلم ليؤدوا واجبه بعد أن يستطعموا مذاقه، حتّى وإن لم يرق لعموم الناس، يقول طه حسين:"والنتائج المرجوة لهذا المذهب الذي يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر؛ فهي إلى الثورة الأدبية أقرب منها إلى كلّ شيء آخر. وحسبك أنّهم يشكّون فيما كان الناس يرونه يقينا، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنّه حقّ لا شكّ فيه"[30]

تظهر معالم الدرس الاستشراقي بشكل واضح في هذا النص، وبخاصّة لما نعلم بأنّهم أوّل من تبنّى هذا التوجّه الجديد في دراسة الأدب، والذي يحتكم إلى منهج الشك الذي أنشأه ديكارت، وها هو طه حسين في موضع آخر من الكتاب يبدي إعجابه به، قائلا: "أريد أن أسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كلّ شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوّا تامّا"[31]

يتحدّث طه حسين عن تطبيقه على دراسته للأدب الجاهلي، قائلا:"فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه، وقد برّأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا"[32]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

2-2-2- النظرية النقدية في الكتاب

تستقيم النظرية النقدية عند طه حسين في الكتاب حول الشعر الجاهلي، وتبعا لذلك قسّم بحثه إلى ثلاثة أقسام رئيسة تعزّز موقفه من قضية الشك في الشعر الجاهلي، فتناول في القسم الأول؛ دوافع الشك في الشعر الجاهلي، وأمّا القسم الثاني فعرض فيه لأسباب الوضع والنحل، وخصّص القسم الثالث من الكتاب لدراسة طائفة من الشعراء مشكّكا في نسبة الشعر إليهم، والحقيقة أنّ هذا التقسيم لا يكاد يبتعد كثيرا عن طروحات مارجليوث في عناصره الأساسية، وإن اختلف عنها في التفصيل والعمق في التحليل، حتى أنّ هناك من اعتبر أفكار طه حسين ما هي إلا استنساخ لأفكار مارجليوث في القضية، يقول الدكتور يحي الجبوري:"وقد أخذ طه حسين أكثر مادته من روايات ابن سلام، واستنتاجات وآراء مارجليوث، وتوسّع فيها وعمّم الأحكام الفردية، واتخذ الأمور الخاصة فصيّرها قواعد عامة"[33]

يذيع طه حسين عناصر نظريته في مؤلفه من البداية، قائلا: "فأوّل شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنّني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألحّ علي الشك، فأخذت أفكّر، وأقرأ وأتدبّر، حتّى انتهى بي كله إلى شيء إن لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين، ذلك أنّ الكثرة المطلقة مما نسمّيه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إمّا إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. ولا أكاد أشكّ في أنّ ما بقي في الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي، وأنا أقدر النتائج الخطيرة لهذه النظرية، ولكني مع ذلك لا أتردّد في إثباتها وإذاعتها، ولا أضعف عن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أنّ ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، إنّما هو نحل الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين "[34]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

آثرنا أن نأتي بهذا النص المطوّل لطه حسين، لأنه يمثّل حوصلة عامة لنظريته المتعلقة بالنص الشعري التراثي قبل الإسلام، هذه النظرية التي يبدأ في تفصيلها، مع عرض دوافع الشك في الشعر الجاهلي والتي تتحدد في كون هذا الشعر لا يعطينا صورة صادقة عن الحياة العقدية والسياسية والاجتماعية والعقلية والاقتصادية، بخلاف النص القرآني الذي يفصِّل في هذه الأمور، كما أن الشعر الجاهلي لا يمكن أن يمثل اللغة العربية. فالحياة الجاهلية في نظره يجب أن تلتمس في القرآن لا في الأدب الجاهلي.

فأمّا عن الدين في الشعر، فيقول:"فأمّا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة، بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلّطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية"[35] وأمّا الحياة العقلية فتظهر في القرآن لا في الشعر الجاهلي، يقول في ذلك : " ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها، وإنما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في الشعر الجاهلي: يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظا عظيما"[36]

أمّا سياسيا واقتصاديا فنجد الشعر الجاهلي خاليا من تصوير سياسة العرب قبل الإسلام، وهم أصحاب السياسة والأحلاف كما جاء في القرآن، يقول طه حسين:"لم يكن العرب إذن كما يظنّ أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين. فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم، وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم"[37] ويقول في موضع آخر:" وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الأدب الجاهلي كله دون أن تظفر بشيء ذي غناء يمثّل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم"[38]

أمّا حياة العرب الاجتماعية بكل مظاهرها فتظهر في القرآن أكثر من ظهورها في الشعر الجاهلي الذي يكتفي بنقل مظاهرها الإيجابية كالجود والكرم والشجاعة، ويغفل عن أخرى كالبخل والربا وما إلى ذلك، يقول طه حسين: "فالشعر الجاهلي يمثّل لنا العرب أجواد كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها؛ ولكن في القرآن إلحاحا في ذمّ البخل وإلحاحا في ذمّ الطمع"[39]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

يركّز طه حسين في دوافعه التي حشدها للشّكّ في قيمة وصحّة الشعر الجاهلي على اللغة، كما فعل مارجليوث في قضية اللغة والشعر الجاهلي، فيفرد لها حيّزا كبيرا في تحليلاته، فينطلق من فكرة اختلاف اللهجات بين القبائل العربية وهو ما لا يظهر في الشعر الجاهلي، فيقول: "على أنّ هناك شيئا آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الأدب الجاهلي، لعله أبلّغ في إثبات ما نذهب إليه، فهذا الأدب الذي رأينا أنّه لا يمثّل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين، بعيد كلّ البعد عن أن يمثّل اللغة العربية في العصر الذي زعم الرواة أنه قيل فيه"[40]

بعد أن يفرغ العميد من تحليل وشرح دوافع الشك عنده ينتقل إلى أسباب النحل، والتي تتلخص عنده في جملة من الأسباب، والتي يرجعها إلى ما يلي؛ السياسة ، الدين، القصص، الشعوبية، الرواة[41]

الخاتـــمة

قد لا نبالغ إن قلنا بأن المشروع النقدي لطه حسين في مؤلفه المعنون بـ (في الأدب الجاهلي) يمثل بداية التأسيس لمشروع نقدي حداثي شامل، يعيد بناء مسلماته المتعلقة بإحياء التراث، والاستفادة منه في بناء صرح جديد للأدب العربي، يكون مبنيا على الجدل والمناقشة والمحاججة، متجاوزا مرحلة الوقوف من النص التراثي موقف المنبهر أمام قداسته.

يبدو طه حسين متأثّرا إلى حدّ بعيد بالفكر الاستشراقي عامة، وبأفكار مارجليوث على وجه الخصوص في طريقة التعامل مع النص التراثي، وطه حسين ذاته يقرّ بذلك، وممّا لا مراء فيه أنّ طه حسين ورغم العديد من المزالق التي وقع فيها والتي وقف عندها النقاد فترةً طويلة[42] ولم نقف عندها لأسباب تتعلق بطبيعة البحث المخصص للتأثيرات الاستشراقية دون غيرها، فإنّ بإمكاننا أن نخلص إلى أنّ طه حسين استطاع أن يرسم طريقا واضحا لمن جاء بعده من النقاد في التعامل مع النص التراثي، وحتى النص الحديث والمعاصر بأفكاره الجريئة. ومن هنا أمكن لنا طرح جملة من الأسئلة، أبرزها: لو لم يتح لنا من الدرس الاستشراقي – ما أتيح لطه حسين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

وغيره من النقاد العرب – حول التراث منذ بداية اهتمام المستشرقين به، كيف سيكون تعاملنا مع النص التراثي؟ ألم تحرك آراء طه حسين الفكر النقدي العربي؟ ألم تجعل آراء طه حسين النقاد العرب يحتكمون إلى الموضوعية والدقة العلمية؟ ألم تسمح أفكار طه حسين للنقاد بإعادة صياغة السؤال عن المنطلقات الفكرية والخلفيات الفلسفية للنقد العربي المعاصر ككل؟ ونحن بدورنا نتساءل: كيف يمكن إعادة بناء العلاقة بيننا وبين الفكر الغربي بداية بالمستشرقين وانتهاء بالمناهج الغربية الحديثة والمعاصرة.

الهوامش:

1/ طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط11، ص61.

2/ إبراهيم عوض، نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي: سرقة أم ملكية صحيحة؟
https://vb.tafsir.net/tafsir
pm09:21 ,2012/03/ 14

3/ شكري النجار، لم الاهتمام بالاستشراق؟ مجلة الفكر العربي، ع31، كانون الثاني(يناير) – آذار(مارس)1983،السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان،ص63.

4/ نفسه، ص63.

5/ أحمد حسن عبد السلام، تاريخ الاستشراق الألماني، مجلة الفكر العربي، ع31، كانون الثاني(يناير) – آذار(مارس)1983،السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان،ص192.

6/ ميشال فاني، قراءة تاريخية للاستشراق في إيطاليا، مجلة الفكر العربي، ع31، كانون الثاني(يناير) – آذار(مارس)1983،السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ص206.

7/ س. مارجليوث، أصول الشعر العربي، تر: يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1981، ص17.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164

8/ نفسه، ص18.9/ نفسه، ص59.10/ نفسه، ص60.11/ نفسه، ص60.12/ نفسه، ص62.

13/ نفسه، ص71.14/ نفسه، ص77.15/ نفسه، ص7716/ نفسه،ص81.17/ نفسه،ص83.

18/ مصادر الشعر الجاهلي، ص 379- 380.

19/ إبراهيم عوض، نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي: سرقة أم ملكية صحيحة؟ https://vb.tafsir.net/tafsir

20/ نفسه. 21/ نفسه. 22/ نفسه. 23/ ينظر: نفسه.

24/ في الأدب الجاهلي،ص08،07.

25/ نفسه،ص08. 26/ نفسه،ص09. 27/ نفسه، ص16. 28/ نفسه، ص29،28. 29/ نفسه،ص64. 30/ نفسه، ص64.

31/ نفسه،ص68. 32/ نفسه،ص68.

33/ أصول الشعر العربي، ص29.

34/ في الأدب الجاهلي، ص65.

35/ نفسه، ص73،72. 36/ نفسه، ص73. 37/ نفسه، 75. 38/ نفسه، ص75. 39/ نفسه، ص 77.

40/ نفسه، ص80. 41/ ينظر: المرجع نفسه، ص113 وما بعدها.

42/ يمكن الإشارة هنا إلى محمد فريد وجدي في كتابه (نقد كتاب في الشعر الجاهلي)، محمد لطفي جمعة في مؤلفه (الشهاب الراصد)، محمد الخضر حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، محمد أحمد الغمراوي في مؤلفه (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي)، مصطفى صادق الرافعي في مؤلفه (تحت راية القرآن).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1164